

أهو طفلی أم ابن حماتی؟



«لا أطنْ أَنْ» بیننا كلاماً كثيراً.. هي حماي و أنا زوج بنتها الصغيرة.. كنت قد نويت أن نعيش في شقة نستأجرها على قدر إمكاناتي.. ابني فيها حياً مع عروسي.. من دون رقيب ولا وجَعَ رأس؛ لكن والدة سلمى أصرّت على أن نسكن عندها في البيت الكبير.. توسلت بي لكي لا تبقى وحيدة.. لقد تجاوزت الستين من عمرها، وقد أشفقت عليها وطاوتها وتخليت عن طرف من كرامتي.. وفي عشيرتي يُسمون مَنْ يُقيم عند زوجته: (قعيدي).. وهو لقب غير مستحب، طبعاً.. القعيدي هو الذي لا يملك أن يفتح بيته يتزوج فيه ويؤسس عائلة لا تكون ضيفة، إنْ لم نقل عالة، على الغير.. حتى لو كان هذا الغير أقرب الناس..

سارت الأُمور في البداية على ما يُرام.. ولمّا ظهرت بوادر الحمل على سلمى، تغيّرت نظرات والدتها.. إنّها مشغولة بالطفل المُقبل وكأنّه طفلها، تشتري له الثياب وتُجهّز له لوازمه وسريره وحوض استحمامه وحتى ألعابه وسياراته الصغيرة، بل إنّ حماتي صارت تتصرّف وكأنّها هي المرأة الحبلى، ونراها أحياناً تُشتهي عنباً أسود، أو زيتوناً، أو طبخة محسنة ورق عنب في آخر الليل، مثل مَن تتوهّم وتخشى أن تظهر بقعة سوداء على خد المولود، إذا أنا لم ألبّ طلبي وأنزل لكي اشتري لها العنبر.

مع تَقدُّمِ ابنتها في أشهر الحمل، زادت لَجاجَة حماة وصارت تُقلقني كثيراً.. أزعج حين تطلب من سلمى أن تنتقل للنوم معها في غرفتها، بحجة الاعتناء بها ورعايتها في أشهرها الأخيرة.. وقد انزعجت واضطربت إلى رفع صوتي حين قررت حماة أن المعاشرة الزوجية تُسبيب الإجهام.. هل تصوّرني وحشاً من دون لياقة أو رجلاً أرعَنْ جــلــفاً يُمكن أن يقوم بمارسات تؤذى زوجته الحامل بطفله؟ بصراحة، لم أعد أعرف ابن مَنْ سيكون الولد، طفل أم لعبه حماة.

إنَّ والدتي تتشاءم من شراء لوازم الوليد قبل استكمال أشهر الحمل؛ لكن والدة زوجتي لا تسمع أي رأي غير رأيها، ولا تُقيِّم وزناً لما تنبه به أو تقتربه والدتي.. وأنا أخشى أن تنتهي الأُمور بنزاعٍ

وخلال أضطر معه إلى مغادرة البيت الذي نُقيم فيه ضيوفاً ننساع لأوامر صاحبته.. وكلّ هذا التوتر يؤثر في سلمي وفي صحتها، وعلى سلامة طفلنا المنتظر.. إنّها صاحبة القرار.. فإنّما أن تواجه والدتها وتضع حدّاً لتدخلاتها، وإنّما الرحيل إلى بيت لنا وحدينا.

- لن يسلبني فرحة آخر العمر:

ما كان يمكن لي التفريط بسلامي، صغيرتي وأخر العنقود.. لقد رحل أبوهم للقاء ربّه، وتزوج الكبار كلّهم وبقيت حبيبة أمّها، تؤنس وحدتي وتملاً علىّ البيت وأسمع منها صوتاً يُحادثني لكي لا أبقى بمفردي، أتكلّم مع نفسي ومع التلفزيون والتليفون.. لذلك، حين جاء ابن الحال يطلب يد سلمي، كان شرطي واضحاً لا يقبل النقاش: إنّما أن يأتي ليقيم معنا، أهلاً وسهلاً به، أو مع السلامة، ليبحث عن نصيبه خارج هذا البيت.

وافق العريس لأنّه كان مُعجبًا بابنتي، وأغلب الظن أنّه كان يحبّها.. إنّما هي فلم تقل لي شيئاً سوى أنّه تراه مناسباً لها وطيبة لها وقريباً من القلب. وبعد شيء من التفاهم وافق على شرطي، وقال إنّه يعتبرني بمثابة والدته وليس من شيم الرجال أن يتركني أعيش بمفردي.. وقد كان الحل في رأيه، أن يأخذني لأقيم في الشقة التي ينوي استئجارها بعد الزواج.

لم اتعود السكن في الشقق والعقارات التي تجمع أشكالاً من الأغرباب، ثم إنّ ولدي الكبير أولى بي، غير أنّني لم أكن أتفاهم مع زوجته، لذلك بقيت في بيتي مدام أنّ سلمي كانت معي، وقد وعدتني بألا تُفارقني وبألا ترتبط إلا بمن يوافق على العيش في بيتنا الكبير الذي يتسع عائلات عدّة.. وهكذا كان.. لذلك كانت فرحتي مضاعفة بزواج صغرى بنا تي.. هي سعيدة بمن تريد وأنا سعيدة بهما.. سعادت زادت وبلغت الأوج عندما عرفت أنّها تنتظر مولوداً.

هذا الطفل سينعش حياً تي ويُعيد روح الحياة وصَحّبها إلى منزلي الكبير الهادئ الصامت.. صحيح أنّه ليس أول أحفادي؛ لكنّه المولود الذي سيتربي في حضني، وكأنّه ولدي.. لماذا يستكثر عليّ أبوه هذه الفرحة؟ ينظر إليّ باستنكار وأنا اشتري ثياب الطفل وأؤثث غرفته وأجمع العابه.. كأنّ نظراته تفهمّني بأنّني أخطف طفله منه.. وأنا لا أحبّ الجحود، ولن أسمع لسلمي بأن تُغادر هذا البيت مهما حدث.. لن يسلبني زوجها فرحة آخر العمر ويدفوني وأنا ما زلت حيّة أتنفس.. ▶